﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ ﴾

الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة يعطينا صفات أخرى من صفات المؤمنين . . فبعد أن ابلغنا أن من صفات المؤمنين الايمان بالغيب واقامة الصلاة والانفاق مما رزقهم الله . . يأتى بعد ذلك الى صفات أخرى . .

فهؤلاء المؤمنون هم : (الذين يؤمنون بما انزل اليك) أى بالقرآن الكريم الذئ انزله الله سبحانه وتعالى . . و« بما أنزل من قبلك » وهذه لم تأت فى وصف المؤمنين إلا فى القرآن الكريم . . ذلك أن الاسلام عندما جاء كان عليه أن يواجه صنفين من الناس . . الصنف الأول هم الكفار وهم لا يؤمنون بالله ولا برسول مبلغ عن الله . . وكان هناك صنف آخر من الناس . . هم أهل الكتاب يؤمنون بالله ويؤمنون برسل عن الله وكتب عن الله . .

والاسلام واجه الصنفين . . لأن أهل الكتاب ربما ظنوا أنهم على صلة بالله . . يؤمنون به ويتلقون منه كتبا ويتبعون رسلا وهذا فى نظرهم كاف . . نقول لا . . فالاسلام جاء ليؤمن به الكافر ، ويؤمن به أهل الكتاب ، ويكون الدين كله لله . .

والله سبحانه وتعالى فى كتبه التى أنزلها أخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن اسمه وأوصافه . . وطلب من أهل الكتاب الذين سيدركون رسالته صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا به . .

ولقد أعطى الله جل جلاله أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل الكتاب حتى إنهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . . بل كانت معرفتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وزمنه وأوصافه معرفة يقينية . . وكان يهود المدينة يقولون للكفار . . أظل زمن رسول سنؤمن به ونقتلكم قتل عاد وإرم . . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا أول من حاربه وأنكر نبوته . . فأوصاف رسول الله عليه الصلاة

والسلام موجودة فى التوراة والانجيل . . ولذلك كان أهل الكتاب ينذرون الكفار بأنهم سيؤمنون بالرسول الجديد ويسودون به العرب . . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

أى أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن مفاجئة لأهل الكتاب بل كانوا ينتظرونها . . كانوا يؤكدون أنهم سيؤمنون بها كما تأمرهم به كتبهم . . ولكنهم رفضوا الايمان وانكروا الرسالة عندما جاء زمنها . .

ثم يقول سبحانه وتعالى : « وبالآخرة هم يوقنون » ونلاحظ هنا أن كلمة (وبالآخرة) قد جاءت . . لأنك اذا تصفحت التوراة التى هى كتاب اليهود ، أو قرأت التلمود لا تجد شيئا عن اليوم الآخر . . فقد أخذوا الأمر المادى فقط من كتبهم . . والله تبارك وتعالى أكد الايمان باليوم الآخر حتى عرف الذين يقولون آمنا بالله وكتبه ورسله ولا يلتفتون الى اليوم الآخر أنهم ليسوا بمؤمنين . . فلو لم يجىء هذا الوصف فى القرآن الكريم ربما قالوا إن الاسلام موافق لما عندنا . . ولكن الله جل جلاله يريد تصوير الايمان تصويرا كماليا بأن الايمان بالله قمة ابتداء والايمان باليوم الآخر قمة انتهاء . . فمن لم يؤمن بالآخرة وأنه سيلقى الله وسيحاسبه . . وأن هناك جنة ينعم فيها المؤمن ، وناراً يعذب فيها الكافر يكون ايمانه ناقصا . . ويكون قد اقترب من الكافر الذى جعل الدنيا غايته وهدفه . .

فالمؤمن يتبع منهج الله فى الدنيا ليستحق نعيم الله فى الآخرة . . فلو أن الآخرة لم تكن موجودة ، لكان الكافر أكثر حظا من المؤمن فى الحياة . . لأنه أخذ من الدنيا ما يشتهيه ولم يقيد نفسه بمنهج ، بل أطلق لشهواته العنان . . بينما المؤمن قَيَّدَ حركته فى الحياة طبقا لمنهج الله وتعب فى سبيل ذلك . ثم يموت الاثنان وليس بعد ذلك شىء . . فيكون الكافر هو الفائز بنعم الدنيا وشهواتها . والمؤمن لا يأخذ شيئا . والأمر هنا لا يستقيم بالنسبة لقضية الايمان . . ولذلك كان الايمان بالله قمة الايمان بداية والايمان بالآخرة قمة الايمان نهاية .

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾

قوله تعالى : (أولئك) اشارة الى الذين تنطبق عليهم كل الصفات التى يبينها الله سبحانه وتعالى فى الأيتين السابقتين .. فأولئك الذين تنطبق عليهم هذه الصفات وصلوا الى الهدى أى الى الطريق الموصل للإيمان .. ووصلوا إلى الفلاح ، وهو الهدف من الإيمان ..

وقوله تعالى : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » تشمل الجميع ..

ولكن لماذا استخدم الله تبارك وتعالى « أولئك » مرتين ؟ تلك من بلاغة القرآن الكريم ، ولماذا دمج الخبرين بعضهما مع بعض ؟ حتى نعرف أنه ليس فى الاسلام إيمانان بل إيمان واحد يترتب عليه جزاء واحد .. وسيلته الهدى ، وغايته الفلاح .. ولو نظر الى التكليفات التى هى الهدى الموصلة الى الغاية نجد أن الله سبحانه وتعالى رفع المهتدى على الهدى .. لنعرف أن الهدى لم يأت ليقيد حركتك فى الحياة ويستذلك ، وانما جاء ليرفعك ..

إن السطحيين يعتقدون أن الهدى يقيد حركة الانسان فى الحياة ويمنعه من تحقيق شهواته العاجلة .. ولكن الهدى فى الحقيقة يرفع الانسان ويحفظه من الضرر ، ومن غضب الله ، ومن افساد المجتمع الذى سيكون هو أول من يعانى منه .. لذلك قال تبارك وتعالى : « على هدى » ..

و (على) تفيد الاستعلاء . فاذا قلت أنت على الجواد فإنك تعلوه .. كأن المهتدى حين يلزم نفسه بالمنهج لا يذل .. ولكنه يرتفع الى الهدى ويصبح الهدى يأخذه من خير الى خير .. وذلك بعكس الضلالة التى تأخذ الانسان الى أسفل ..

ولذلك حين تقرأ فى القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة سبأ)

ترى ما يفيد الارتفاع والعلو فى الهداية ، وما يفيد الانخفاض والنزول فى الضلالة ؛ وإنما كان العلوّ فى الهدى . . لأن المنهج قيَّدَ حركة حياتك اعزازا لك لعلوك وسمو مقامك فى أنك لا تأخذ من بشر تشريعا . . ولا تأخذ من ذاتك حركة . . وإنما يرتفع بك لتتلقى عن الله سبحانه وتعالى . . وهذا علو كبير . . ولكن عند الضلال قال : « فى ضلال » . . و (فى) تدل على الظرفية المحيطة . .وهو كما وصفه الله سبحانه وتعالى فى آية أخرى بقوله جل جلاله :

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

أحاطت به الخطيئة . . أى لا يستطيع أن يفلت منها لأنه مظروف فى الضلال . . ومادامت الخطيئة محيطة به فلا يجد منفذا لأنها تحكمه . . وما دامت تحكمه فلا يمكن أن يصل إلى هدى مطلقا . . فالحق سبحانه وتعالى حينما قال : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » . . اختار لفظا عليه دلالة دنيوية تقرب المعنى الى السامع . .

ما هو الفلاح ؟ . . المعنى العام هو الفوز والْمُفْلِحُ هو الفائز . ومعنى الآية الكريمة أولئك هم الفائزون وقال : « هم المفلحون » . . لأن الفلاح مأخوذ من شق الأرض للبذر . . ومنه سُمِّىَ الفلاح الذى صفته شق الأرض ورمى البذور فيها . .

والحق سبحانه تعالى جاء بهذا اللفظ بالنسبة للآخرة لأنه يريد أن يأتى لنا مع الشىء بدليله . . وهناك فرق بين أمر غيبى عنا لا نعرفه . . وأمر غيبى يستدل عليه بمشهود . .

فالدين يقيد حريتك فى الحياة فى أن تفعل ولا تفعل . . ومنهج الله جاء ليقول لك إفعل كذا ولا تفعل كذا . وكثير من الناس يظن أن ذلك تقييد لحركة حياة المؤمن واثقال عليه . . لأنه أخذ منه حرية حركته فقيدها . .

ان الله تبارك وتعالى حين يقول لك لا تفعل . . معناها عند السطحيين أنه ضيق عليك ما تريد أن تفعل . . وحين يقول لك افعل . . معناها يكون قد ضيق عليك فى شيء لا تريد أن تفعله . فمثلا : حين يطلب منك الزكاة . . فالزكاة فى ظاهرها نقص المال ، وإن كانت فى حقيقتها بركة ونماء . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه)(١) .

فالحق سبحانه وتعالى اذا قيد حركتك فى الحياة . . لا تظن أن هذا تضييق عليك . . بل ان هذا لفائدتك . لأنه لم يأمرك وحدك ، ولكن الأمر للناس جميعا حين يقول جل جلاله : لا تسرق . . فقد قالها للناس جميعا ولذلك تكون أنت الرابح . . لأنه قيدك وأنت فرد من أن تسرق من غيرك . . ولكنه قيد ملايين الناس من أن يسرقوا منك . . اذن فالله لم يضيق عليك ، ولكنه حمى مالك من الناس كل الناس . . قيدك وأنت فرد أن تسرق من مال غيرك ، وقيد ملايين أن يسرقوا من مالك . . فمن الفائز ؟ . . أنت طبعا . .

وقوله تعالى : « أولئك هم المفلحون » (المفلحون) من مادة فلح . . فاذا كانت الأرض صماء فحينما نشقها ونبذرها تعطى محصولا عظيما ، العملية أخذناها أبا عن جد . فالأرض حين تشق وتبذر تعطى محصولا وافرا . . واذا كانت هذه العملية أخذت أبا عن جد . . يأتى السؤال من الذى علم آدم البذر والزرع ؟ . . نقول علمه الله سبحانه وتعالى كما علمه الأسماء . . وكما علمه ما يمكنه به أن يباشر مهمته فى الأرض . .

والحق جل جلاله لم يكن يترك آدم فى حياته على الأرض دون أن يعلمه ما يضمن استمرار حياته وحياة أولاده . . يعلمه على الأقل بدايات . . ثم بعد ذلك تتطور هذه البدايات بما يكشفه الله من علمه لخلقه . . وبعد ذلك جاءت القرون المتقدمة

(١) رواه أحمد ، ومسلم ، والترمذى عن أبى هريرة .

فاستطعنا أن نستخدم آلات حديثة متطورة تقوم بعملية الحرث والبذر . .

ولكن الحقيقة الثابتة التى لم تتغير منذ بداية الكون ولن تتغير حتى نهايته . . هى أن مهمة الانسان أن يحرث ويضع البذرة فى الأرض ويسقيها . . أما نمو الزرع نفسه فلا دخل للانسان فيه . . وكذلك الثمر الذى ينتجه لا عمل للإنسان فيه . .

ولقد نبهنا الله تبارك وتعالى الى هذه الحقيقة حتى لا نغتر بحركتنا فى الحياة ونقول إننا نحن الذين نزرع . . واقرأ قول الحق جل جلاله فى سورة الواقعة :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

وهكذا ظلت مهمة الفلاحة فى الأرض مقصورة على الحرث والسقى والبذر ، وحينما تلقى الحبة فى الأرض يخلق الله فى داخلها الغذاء الذى يكفيها حتى تستطيع أن تأخذ غذاءها من الأرض . . واذا جئت بحبة وبللتها تجد أنها قد نبت لها ساق وجذور . . من أين جاء هذا النمو ؟ . من تكوين الحبة نفسه ، والله تبارك وتعالى قد قدر فى كل حبة من الغذاء ما يكفيها حتى تستطيع أن تتغذى من الأرض . . وعلى قدر كمية الغذاء المطلوبة يكون حجم الحبة . . وحين تضعها فى الأرض فإنها تبدأ أولا بأن تغذى نفسها . . بحيث ينبت لها ساق وجذور وورقتان تتنفس منهما . . كل هذا لا دخل لك فيه ولا عمل لك فيه . . وتبدأ الحبة تأخذ غذاءها من الأرض والهواء . . لتنمو حتى تصبح شجرة كبيرة تنتج الثمر من نوع البذرة نفسه .

ومن هنا جاءت كلمة (المفلحون) . . ليعطينا الحق جل جلاله من الأمور المادية المشهودة ما يعين عقولنا المحدودة على فهم الغيب . . فيشبه التكليف وجزاءه فى الآخرة بالبذرة والفلاحة . . أولا لأنك حين ترمى بذرة فى الأرض تعطيك بذورا كثيرة . .

واقرأ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وإذا كانت الأرض وهى المخلوقة من الله تهبك أضعاف أضعاف ما أعطيتها . . فكيف بالخالق ؟ . . وكم يضاعف لك من الثواب فى الطاعة ؟ . . هذا هو السبب فى أن الحق تبارك وتعالى يقول : « وأولئك هم المفلحون » . . حتى يلفتنا بمادة الفلاحة . . وهى شيء موجود نراه ونشهده كل يوم .

وكما أن التكليف يأخذ منك أشياء ليضاعفها لك . . كذلك الأرض أخذت منك حبة ولم تعطك مثل ما أخذت ، بل أعطتك بالحبة سبعمائة حبة . . وهكذا نستطيع أن نصل بشيء مشهود يُفَصِّلُ لنا شيئا غيبيا .

